فضيلة الشيخ

هاني حلمي

WWW.MANHAG.NET

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله عليم

الحمد لله وكفى

وصلّ الله وسلم وبارك على النبي المصطفى،

وآله المستكملين الشرفَ

ثم أما بعد؛

فاسأل الله تبارك وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا

وأن ينفعنا بما علمنا

وأن يزيدنا علماً ينفعنا

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً

على مدى هذه السلسلة المباركة كنا نمر على علامات العارفين بالله تبارك وتعالى ولكن علامة اليوم لها شأنٌ خاص لأنها لُب المعاملة وأساس تبني عليه علاقتك بربك تبارك وتعالى ، علامة اليوم لها مزية عن سائر العلامات لأنها ستُعرفنا بالله أكثر وتُعرفنا بأنفسنا كذلك.

علامة اليوم مستقاة من قول أبي يزيد البسطامي : إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له.

هذه هي القضية ، مالك وماله ، أنت تريد وهو يريد ، وهل إرادتك توافق إرادته ؟

العلماء يقولون : هم ثلاث إرادات ،

إرادة الله الكونية وإرادة الله الدينية وإرادة العبد ،

والعبد السعيد الموفق الذي تجتمع عنده الثلاث على الموافقة ، فالله يريد شرعًا له اليسر ، فإذا به كونًا يوفقه لذلك ، ويكون هذا هو مطلب العبد أصلًا فتجتمع الإرادات ، أنا أريد أن تكون لي المنزلة عند الله عز وجل وبالفعل أضع أمام عيني هدفًا ويوفقني الله عز وجل له وهذا الهدف يوافق ما يحبه الله حقًا ما يحبه ويرضاه ، ابن القيم في تقرير هذه العلامة في المدارج يقول : فالحق تبارك وتعالى مراده من عبده استحضار عبوديته لا الغيبة عنها ، أن تكون دائماً واضعًا هذا الهدف وهو حق الله .. حديث معاذ في الصحيحين لما قال له النبي ﷺ : يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ فقال له النبي ﷺ : إن حق الله على العبدا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا ، تلك هي قضيتك الأساس .. قضية العبودية ، لماذا أعيش ؟؟ كي أحققها ، زمان عملنا محاضرة للأخوات .. ماذا بعد الحجاب وقلت أن الأخوات عندما ترتدي النقاب فتشعر أنها حققت رأس العبودية ، وتتزوج فتستشعر أنها قد تم لها الأمر ، فهي تظن ذلك على أنه ما هي إلا أن سارت خطوة في طريق العبودية ، المفترض أنها توظف حياتها لهذا الهدف ، ما مرادها ؟ أن تكون أمة لله تبارك وتعالى ، يحدث هكذا مع الأخوة كذلك ، فأحيانًا لما يتسنن ويظهر ذلك في ظاهره وعندما يبدأ في أخذ قسط من العلم أو يكون له شيء من دور دعوي أو تعبدي أو ما شابه ، يظن أنه حقق العبودية ، ومفهوم العبودية مفهوم قاصر جدًا للأسف الشديد في أذهان الناس ،

ماذا يريد الله منك ؟ يريدك عابد ، وما معنى العبودية ؟ هذا هو محل الإشكال ، أننا لا نفهم هذه القضية ، معنى العبودية بعضهم يقول : أن يدور مع مراد الله أينما دار ، أن يدور مع مراد الله أينما دار ويتبع رسوله أينما سار ، ابن القيم يقول : فالحق مراده من عبده استحضار ذلك – استحضار العبودية – لا الغيبة عنها – لا تنسى هذا المعنى طرفة عين أنك عابد ..أنك عبد– والعامل على الغيبة عنها عامل على مراده من الله ،

وأنت ماذا تريد ؟ أنت تريد شيئاً من الله ، أنت تريده يعطيك مالاً .. يبعث إليك برزق .. يزوجك .. يعطيك متاع من متاع الدنيا ..يعطيك جاه .. يعطيك قوة .. يعطيك كذا .. مرادك أنت من الله ، ولا مانع أن في المقابل أنا سأفعل كذا وكذا وأريد منه جنة ، على مرادك أنت لا على مراده هو ، لذلك يخرج المعنى الذي يُسمى (حظ النفس)، فهو واقعًا ماذا يريد ؟؟ أنت ستذهب لطلب العلم ، ما مراد الله منك ؟ أن العلم يورثُك الخشية ، أنك تتعلم فتزداد منه قربًا ، وأنت ما هو مرادك ؟ أن يصير لك شأن وتعرف تتحدث ، تجلس في المجالس تباهي أي أحد بما تحفظ ، وأنك تقول أنا حاصل على إجازة من فلان .. وتعلمت على يد كذا .. وأنا قارىء في كتب فلان وفلان .. وتستعرض بضاعتك .. هذا مرادك أنت وهدفك الحقيقي ، فماذا يحدث ؟ حظ النفس ومراد الرب ، تعارضا لذا لا يتم لك الأمر ، إنما يتعثر من لم يخلص، وهكذا .. يتزوج .. لماذا تتزوج ؟؟ أُرضي ربي عني ، لأعف نفسي حتى لا أقع في المنكرات والمحظورات الشرعية .. تمام .. كلام ١٠ على ١٠ ، لكن في واقع الأمر أنا أريد.. لماذا؟ الناس تستمتع وتعيش حياتها فلم لا أعيش أيضاً ؟ لذا ستجده في اختياره وفي منزله حتى اليوم يعاني من أثر حظ النفس ، تريدون أن تنهوا جميع مشاكلنا ؟ أي مشكلة تخطر على بالك في منزلك .. في عملك . .أياً ما كان ستجد وراءها كلمة اسمها (حظ النفس) .. ماذا أريد ؟؟ أنا أريد أن أنام .. والله يريدني قائم ، فأبدأ أنا لن

أقول بشكل صريح أنني أريد أن أنام ، إنما سأقول أنا أريد أن أنام لأتقرب إلى الرحمن بصلاة الفجر ، فأزينها ، مثل صاحبنا في الزواج . .لماذا تتزوج ؟ كي تستمتع ؟؟ يقول لك لا..لا أنا أتزوج والدليل أني أخذتها محجبة أو منتقبة أو تتعلم في كذا.. لأنه وقتما اختار اختار عدة أشياء من حظ النفس ، لا يعني ذلك أن يختار من لا تطيب له ، لكن رقم واحد كان ماذا ؟؟ رقم واحد الحقيقي الذي شده .. ديانتها أم جمالها ؟ رقم واحد ..هذا هو ما سيحاسب عليه ، وهذا هو ما ستكلفه تلك الإشكالية ، حظ النفس .. حق الرب ، مراد الله مرادك أنت ، فيقول من يعمل وهو ناسي موضوع العبودية فيعمل على مراده من الله وعلى حظه والتنعم بالفناء في شهوده لا على مراد الله منه ، وبينهما ما بينهما ،

فكن على مراد الله منك لا على مرادك أنت من الله

يقول : فكيف يكون قائمًا بحقيقة العبودية من يقول : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ...} [الفاتحة / ٥] ولا شعور له بعبوديته البتة ، بل حقيقة إياك نعبد .. علمًا ومعرفة وقصدًا وإرادة وعملًا و هذا مستحيل في وادي الفناء ومن له ذوق يعرف هذا وهذا.

هذا الكلام يقوله في بداية المدارج وهو يتحدث على معنى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة / ٥] والفكرة التي فيها ، طبعًا لفظ الفناء الذي يقصده ابن القيم غير المصطلح التصوفي تمامًا ، معنى آخر غير ذلك ، يفنى عن هذا يتخلص من حظ نفسه ، معنى الفناء الذي يقصده ابن القيم أن يتخلص(يفنى حظ النفس) يتخلص من حظوظ النفس القاطعة بينه وبين الله تبارك وتعالى

حسنًا .. هيا لنرى هذا المعنى كي يتقرر لدينا أننا نقف مع ماله .. وهل نعرف ماله . هل نعرف مراده أصلًا ؟ تعالوا لنرى القرآن وهو خير دليل لنا في هذه المسألة .. كيف نعرف مراد الله منا ؟ ماذا يريد ؟ قلنا القرآن يتحدث عن الإرادتين لكن تعالوا لنرى الإرادة الدينية لأنها ما سنتوقف عنده لا الإرادة الكونية لا نتوقف عندها لأن هذا أمر هو الذي سيصير ، الله يريد كذا سيكون {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً...} [يس / ٨٢]تلك هي الإرادة الكونية .. {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس / ٨٢]، أما نحن نريد الانشغال بالإرادة الدينية التي من المفترض أن تكون نُصب أعيننا ، تعالوا لنرى ماذا قال القرآن ، القرآن قال {...يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...} [البقرة / ١٨٥]كل هذه قواعد حتى وإن سيقت في جو معين من الآيات لكن كقاعدة الله يريد بنا اليسر ونحن أحيانًا نريد بأنفسنا العسر ، حين نُخرج هذه النفس عن الصراط المستقيم ، وحين لا تتبع النبي الأمين صلى الله عليه وسلم فإما تغلو وإما تُفرِّط ، كل هذا أنت تعسر الأمور ، أما الله فيريد بك اليسر ، أنا مع كل آية أسأل سؤال.. هل نحن على مراد الله منَّا في ذلك أم لا ؟ هل نحن أصلًا نستشعر في التشريع ذلك أم لا ؟ لو أحدًا أخرج لنا الآن حقيقة علمية أن من يستيقظ لصلاة الفجر – وقرأت كذلك فعلًا – أنه يساعده على كذا في الدورة الدموية وكذا وكذا ، فوقتها سنستشعر أن صلاة الفجر بها فوائد وحكم ومزايا عظيمة تستوجب أن يقوم المرء لها ، تستشعر أن الأمور هكذا بها فائدة كبيرة للنفس ، هكذا يكون لدي يقين ولو سمعت أن من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله وبعد قليل عندما تستهلك وتضيع وسط زحمة الأمور هل أكون مستشعرها ؟؟ أيهما الذي يأتي بقلبي ؟؟ لتكون فاهم .. هل تستشعر بذلك أن هذا ما سييسر لك أمرك ؟؟ يعني إذا قال الله جل وعلا {...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً} [الطلاق / ٢] {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...} [الطلاق / ٣] الأمور ستُيسر بتلك الطريقة {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل / ٧]

{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى} [الليل / ٥] {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} [الليل / ٦] {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل / ٧] أنك تُيسر بذلك ،هل عندما تُخرج مالك تستشعر أن هذا تحقيق لمراد الله منك فالله يُريد بك اليُسر ؟ كل واحدة تحتاج إلى إجابة داخلية ، ليست إجابة إنشائية.

الآية الثانية هما موّضعان في القرآن:

١– يريد بنا اليسر. ٢– يريد بنا العدل ،

قال الله {...وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ} [آل عمران / ١٠٨] وفي موضع آخر قال {...وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ} [غافر / ٣١] فالله يريد بنا ذلك ، بالله الذي لا إله غيره .. هل لا تمر على قلبك رياح التسخط أحياناً ؟ أي وأنت تمر بجد عدلٌ فيَّ قضاؤك أم هناك مشكلة في التعرف هنا فأنت أحيانًا تشعر أن مراد الله منك ليس هو العدل ؟ إنما الله يريد...خلقك لتتعذب ولماذا ابتلاه والأسئلة التي يُثيرُها الملحدون وغيرهم ..

أتريد أن تُفهمني أن من لديه الآن الأمراض المستعصية والناس التي خُلقت بعاهات هل هؤلاء لم يُرد بهم ظلم ؟ ألم يظلمهم ؟؟ أخرجهم في فقر وشدة وأنتم تقولون على غير الإسلام مثل جماعة أفريقيا و .. و .. و .. هؤلاء لماذا خلقوا إذن ؟ فلما يشتت وتجد بعض الناس عندما تسمع تلك الكلمات فلا تجد لديها إجابة ، لأنه لا يعرف مراد الله لأنه لم يفهم عن الله ، لأن المعرفة لم تتحقق عنده فيصل به الأمر في النهاية أن يقول هذه إرادة الرب ويسكت ، ولا يُعرِّف الناس من هو الرب وما هي صنائعه في كونه وكيفية حكمه لهذا وأمور أخرى كثيرة لابد أن توضع في خلفية الإجابة على مثل هذه التساؤلات السيئة ، فهل أنت حقًا لديك يقين بأن الله لا يريد ظلمًا للعالمين ؟ هنا سل نفسك عن هذه الرياح .. رياح التسخط .. هل تمر بقلبك وتمر مرور الكرام أم أحيانًا تتأثر بغبارها ؟

الأولى اليسر الثانية العدل ، الثالثة .. {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء / ٢٦] ثم يؤكد بعدها {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً} [النساء / ٢٧] {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} [النساء / ٢٨] لو أردنا أن نضع عنوانًا على هذه الآيات فهذه آيات مراد الرب في القرآن ، لأنها ذكر فيها معنى الإرادة أكثر من مرة وذُكِّر في أكثر من معنى

أول شيء – المعنى الثالث – البيان والإرشاد ، أحياناً كثيرة عندما يقول الله {...وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام / ٥٥] كي تتضح الدنيا أمامك ، العلة في ذلك أن تستبين أمامك سبيل المجرمين حتى تعرف الفرق بين فسطاط الحق وفسطاط الباطل ، تعرف تُفرِّق ما بين الأمور ، يهديك ويرشدك ويرشد بالآيات الكونية وبالآيات الشرعية ، ويرشد بهذه الرسائل ، يبين لك أين الحق وأين الباطل .. أين المعروف وأين المنكر ، ألا يستطيع أحد منكم قراءة بعض الرسائل التي أرسلها الله له في حياته ليحقق هذا المعنى ؟ كي يبين لك كي تفهم ، تفهم نعمته .. وتفهم غرورك ، {...مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الإنفطار / ٦] تفهم رحمته حتى في بليته لك لأنه سبحانه وتعالى يبتلي ليهذب لا ليعذب ، تفهم عنه معاني لا تصل إليها أبدًا إلا بالبلاء ، يبين لك ، الطريق لن يكون هكذا ، لو سرت فيها هكذا ستسقط ، فلابد أن يبين لك بإشارات وبمواقف ، والتربية بالمواقف أوقع أنواع التربية تأثيرًا ، فثالث شيء بالبيان والإرشاد والهداية وبأن يذكر سنن الذين من قبلكم بأن يذكر لك سنته كيف سارت فيمن مضى كي تستفيد في وقتك الراهن وفي المستقبل ، تعرف تقرأ التاريخ أو تقرأ تاريخك أنت ، أتذكرون ما قبل الالتزام وما بعد .. هل تفعلون هذه المقارنات ؟ أم نسيتم {...كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ...} [النساء / ٩٤] أم انتهت مع زحام الحياة ؟ كل هذا بيان وإرشاد كي تعرف ما هو مراده منك ؟

.. 4ما مراده منك ؟ مراده التوبة .. يريد أن يتوب ، وإذا أراد أن يتوب فقد تقع في الذنب وهذه سنتوقف عندها لتكون محور الدرس ، ما مراده في الذنب كلنا خطاءين ولماذا كل بنى آدم خطاء ؟ لماذا أصبحت فينا هذه الخاصية وليست كشأن الملائكة مثلًا ؟ لماذا لم نُصبح مثلهم ؟ لماذا كُتب علينا هذا التكليف ؟ما مراده منه ؟ العبد يذنب وأنه يسمي نفسه غفَّار وغفور كي يُذنب العبد فيعامله بهذه الصفات ومعاني هذه الأسماء ما مراده ؟ يريد أن يتوب ، ماذا ستفتح التوبة للعبد ؟ كي أفهم ما مراده منى في كل وقته .. ما حكمته؟ ما السر في هذا؟ لأني لو فهمت ذلك وقارنت بينه وبين حظ النفس تتم المعادلة .. معادلة العبودية ، ويفعل المقارنة . .أنا أريد أن أتوب عليك والذين تذهب لهم يريدون أن تبتعد وتميل ميلًا عظيما ، الله يريد أن يتوب علينا أما الذين يتبعون الشهوات ممن نُشاكلهم ونُصاحبهم ونُخالطهم ونتأثر بهم فيريدون أن تميلوا عن الصراط ميلًا عظيما..

يقول خامساً .. {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} [النساء / ٢٨] .. أنت لا تفهم نفسك ، لا تفهم انك عندما تتوسع في الشهوات وتفتح لنفسك في هذا الباب أنت ضعيف فتزيدها ضعف ، الله يريد أن يخفف عنك الثقل لأنه بالضبط مثل شخص ضعيف مثلما نقول عليه مثل وزن الريشة ونقول له أن يحمل حملًا ثقيلًا ، كيف سيحملها؟ لا يستطيع تحمُل هذا ، فأنت تضع على كتفيك جبال الأوزار ، ماذا تفعل ؟ تُضعف في نفسك أكثر ،لا أستطيع أن أتحمل أي شيء من ثقل الحمل على كاهلي من ذلك ، الله يريد أن يخفف ، يريد ألا يثقل كاهلك بالأوزار التي تُعيقك ، أنت تفعل ذلك عندما توسع على نفسك في هذا الباب ، فانظر إلى مراد الله وإلى مرادك أنت

يقول سادساً .. {...مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة / ٦] ما جعل عليك في الدين من حرج وهذا من معنى تخفيفه ومن معنى تيسيره ، فما جعل عليك في هذا الدين من حرج كما يقول الفقهاء : الأمر إذا ضاق اتسع فيُرخَّص ويجب أن تؤتى رُخصُه سبحانه وتعالى ، الكلمة التي نريد أن نتوقف عندها... هذه الكلمة {...وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ...} أنت تُنجس نفسك والله يُريد أن يُطهرك ، أليست الذنوب نجاسات ؟؟ ألا تراها نجاسات ؟ ألا تشعر أنها نجس قذر ؟ النظرة المسمومة قذر سم ، الكلمة التي لا تُعطى لها بال وتهوي بها في النار سبعين خريفًا ماذا يكون تأثيرها على القلب ؟ والله يريد أن تكون طاهرًا ونظيفًا ومن منا لا يحب أن يكون كذلك ؟ إن الرجل ليحب أن يكون ثوبه جميلاً وهيئته جميلة لكن يا من تُزينون الظواهر وتنسون البواطن ، الله يريد أن يطهرك وقبل أن تطهر ثوبك الظاهر طهر ثيابك الباطن {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدّثر / ٤] ، يقول سبحانه وتعالى {...وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [الأنفال / ٧] الله يريد أن تكون راية الحق دائمًا شامخة وأنت أحيانًا ترضى بالدون وترضى بالسفول وترضى بالدنيَّة والله يريد أن يحق الحق و أن يظهر الحق ، ويظهر أهله ويظهر أوليائه لكن أحيانًا أنت رضيّت بالحياة الدنيا واطمأننت بها ورضيّت بالذل والصغار كما هو حال غالب المسلمين في هذا الزمان ، وجُعل الذل والصغار على من خالف أمري

ثامناً .. وتلك آية توضع وتكتب على رأس هذا الأمر كله لأنه ضابط عام .. {...تُرِيدُونَ...} هذه إرادة العبد {...تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...} [الأنفال / ٦٧] تلك هي الحقيقة من الآخر ، {...تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...} [الأنفال / ٦٧] ، إذًا لو أردت أن أفهم مراد الرب فرقم واحد هل هذا يؤدي إلى الآخرة ؟ تعالى نرى في كل النماذج التي تحدثنا عليها .. أنا أتزوج .. آتي بنقود .. أتعلم .. أفعل كذا وكذا .. أنت تريد الآخرة إذًا ليست دنيا كل ما يقطعك عن الآخرة فهو الدنيا وكل ما يشغلك بالآخرة فليس من الدنيا بشيء، ضعها ضابط ، إذا كان سيقطعك ويشغلك مشغلة تُفسد عليك حالك مع ربك فهذه هي حقيقة الدنيا الخفية التي في قلبك ، التي تريدها ، هذا هو عرض الدنيا ، أما الله فيريد الآخرة

من خلال تلك الآيات هذا مراد الله منا و ما يحبه الله لنا وما يرضاه لنا ، أحيانًا تأتي شبهات في هذا المعنى ومن يتفقه من خلال هذا الدرس ومن خلال رؤوس الأقلام التي ذكرناها اليوم ومن خلال المثال الذي سنضربه من خلال معرفة مراد الله من العبد في الذنب ، من يتفقه في هذا المعنى هذا الذي سيُبلغ الفهم عن الله ، وهذا الذي ستكون في قلبه عين البصيرة ، وهو من سيكون تعلم العلم الحقيقي العلم النافع ، تعالوا لنرى القرآن أعطانا أمثلة أيضًا على معاني مشتبهة ، لماذا يرزق الله الكافر ؟ الكافر .. لماذا يرزقه ؟ ما مراد الله من ذلك ؟

قال {وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران / ١٧٦] في ضوء الآية السابقة {...تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...} [الأنفال / ٦٧] أيُّ نظر ؟كيف تنظر ؟ معهم نقود .. معهم إمكانيات ومعهم... ومعهم ونحن لا ، أنت نظرت بأي عين ؟ نظرت بعين الدنيا أم بعين الآخرة ؟ نظرت بعين الدنيا فاغتررت ، {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ} [آل عمران / ١٩٦] ، إنما لو أخذتها بميزان الآخرة قال الله {...يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ...} ليست ملكهم {...وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ} فبمنظور الآخرة هم على رأس قائمة الرسوب ، كذلك أحيانًا تنظر – كما لو نظرنا على دول الغرب وأمريكا وما يعيشونه من رفاهية والدخل السنوي للمواطن الأمريكي أو الأوروبي ونحن هنا والفقر وهذا الكلام قال الله {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [بالتوبة / ٥٥] فيا أيها المستغربون نعم خذوا عنهم الخير ، لكن لا تُفتتنوا بمظاهر الدنيا التي لديهم لأن هذا ما يحدث لنا ، نحن نُفتن بالدنيا لا نُفتن بأن لهم رسالة وقضية يعيشون من أجلها وأنهم يسودون العالم وأن المسلمين لابد أن يكونوا هم الصفوة {...وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران / ١٣٩] أنت لست كذلك ، أنت ترى أننا سنصبح كذلك عندما تكون لدينا ناطحات السحاب والتكنولوجيا ولدينا تلك الإماكانيات التى سنستخدمها للفراهية والترف ونعيش ، نحن لسنا أهل دنيا .. أفهمتم ؟

حسنًا تعالوا نرى المثال ، ابن القيم وهو يتحدث في منزلة التوبة ويشرح كلام الهروّي في لطائف وأسرار التوبة فذكر ثلاثة أشياء وسنتوقف عند الدرجة الأولى التي يشرح فيها هذا المعنى وتعالوا نرى مراد الله ، يقول الهروّي : أولها – من أسرار التوبة – أن ينظر الجناية والقضية – أنا الآن مدمن ذنب لا أستطيع أن أتخلص منه ،ما المفروض أن أفهمه وماذا يريد الله مني ؟ أن ينظر الجناية والقضية – فيعرف مراد الله فيها ، – وما هو – إذ خلَّاك وإتيانها – تركك تفعلها – فإن الله عزوجل إنما خلَّى بين العبد وبين الذنب لأجل معنيين:

المعنى الأول .. أن يعرف عزته في قضائه ، وبره في ستره ، وحلمه في إمهال راكبه

وكرمه في قبول العذر منه ،وفضله في مغفرته

تلك خمسة أشياء في المعنى الأول

المعنى الثاني :: أن يقيم على عبده حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته

تعالوا نفهم ابن القيم كيف سيُخرج من هذا المعنى كم من المعارف؟ لتفهم بعد ذلك كيف تُخرج الحكمة والسر وتفهم مراد الله مما يكون سببًا في شغل نفسك بذلك عن مراد نفسك أنت ، ففي مراد النفس .. فما هو مرادي من الذنب ؟ اللذة .. السعادة .. والهوى – اتباع الهوى – أنا أريد أن أفعل ذلك لذا طالما أريده أخذه ...فمن المصيبة أن تربية الناس اليوم على ذلك .. ما تشتهيه خذه .. فيُنشئ ناس أهل اتباع هوى ، وهذا أنا أراه باطراد في كل من أتعامل ، أهلي علموني هذا وربوني هكذا ما تشتهيه خذه ، كلمة "لا" لا أعرفها ، فبالتالي هو على هذا المراد ، مراده أنا أريد كذا فهذا لابد أن يتحقق ، وهذا يتنافى مع العبودية {...وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات / ٤٠] فابتداءً أنت تريد عكس المعنى تمامًا {...وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...} [الأنفال / ٦٧] المعادلة مرة أخرى وأنتم ماذا تريدون {...تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا...} أنت تريد ما في نفسك سواء دنيا او آخرة ، ليست قصتي ، حتى في لآخرة تفعل ذلك ، أنا مزاجي الآن علم .. إذًا هي علم .. أنا مزاجي الآن وعظ .. إذًا وعظ .. أنا مزاجي الآن دعوة إذًا هي دعوة ، أنا أشعر أني سأصبح هنا مميزًا أكثر من هنا فلابد لأنني أريد الدنيا فأعمل في الجزء الذي سأظهر فيه ، هذا حقيقة المراد {...وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ...} انظر ما هو مرادك؟ لذة وسعادة و .. و .. لكن هو سبحانه وتعالى قادر على أن يقطع عنك مرادك ، اضرب رأسك في الحائط ، عرفت الله بنقض العزائم ، أنا مرادي اللذة والسعادة وكذا وكذا ... إذًا.. سنقطعه عنك .. فأنت وقتها لن تنل مرادك ، إذًا يحول بينك وبين الذنب ،لا بل يُمكِّنك من الذنب ، لماذا يا رب كنت عافيتني أفضل ، لا الأحسن لك أن تذنب .. الأفضل لي أن أُذنب ؟ نعم لأن لديك آفات خفية ومعاني لو بقيَّت فيك ستكون مشكلة ، إذًا ما الحل ؟ أبعث لك هذا لو فهمت المراد منه فستعود لمناخ العبودية ، قال ابن القيم : اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى أمور:

١– أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيُحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب

إذًا أول معنى .. أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي ، إذًا ما مراد الله هنا مني ؟ أن أذهب له وأنا أعلم من هو ، لذلك عَلِمَ عبدي أن له رب يغفر الذنب قد غفرت لعبدي ، يُعرفك من هو ويُعرفك من أنت هذا هو أول معنى..

٢- أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيُحدث له ذلك خوفًا وخشية تحمله على التوبة .. أنت ناسي الجنة والنار ، متناسيهما تمامًا ، فتفعل ذنب سيئ جداً وتقول ما عقوبته أنا فعلت كذا ويسأل وما كفارته ؟ فيقال له احذر .. هذا الذنب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال من يفعل كذا يصبح كذا ، فوقتها هذا يذكره أن هناك جنة ونار لأنه غفل في وسط الدنيا عن الجنة اولنار ، ومن منكم يتذاكر ذلك في يومه وليله ولا يغيب عنه ، الأصل معكوس أننا أحيانًا تمر علينا معاني الجنة والنار لكن الأصل ليس هكذا أن الأصل لدينا الجنة والنار فأحيانا الدنيا تُلهينا

إذًا المعنى الثاني أن ينظر للوعد والوعيد فيُحدث له ذلك الخوف والخشية

المعنى الثالث وهنا سيتوسع .. أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه ، لماذا لم تمنعني ؟ لأن ذلك سيطلعه على رياض مونقة من المعارف وأسرار القدر والحكمة مثل ماذا ؟ عدد معي هنا وكل واحدة ستشهد بها اسم من أسماء الله تبارك وتعالى ، الذي قالهم الهروَّي ، ما أول ما قال ؟ قال يعرف عزته في قضائه ، ما العز هنا ؟ استمع لابن القيم ماذا يقول : أول شيء تحت هذا البند لماذا مكنَّي من الذنب وما مراده من ذلك ؟

قال ١ – شهود اسمه العزيز ، فالعزيز الذي يقضي بما يشاء وهو لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلَّب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء وجعله مُريدًا شائيًا لما شاء منه ، فهذا من كمال العز ، تأتي أنت بلسان المتسخط وتقول لماذا هكذا ؟؟ لماذا قدَّرها ؟ لماذا فعلها ؟ اضرب رأسك في الحائط ماذا ستصل ؟ لو أنك دخلت من باب الاعتراض واعترضت وقلت لا ينفع ولا يصح ولم يكن والمفروض كذا كذا كذا ،، قل ما تريد هو يقولها من هذه الناحية قبل أن نتحدث عن لطائف وأسرار المعنى لو دخلتها من مدخل العزيز ،ماذا تريد ؟ واحد يعترض الآن على مديره ويقول له هذا لا يصلح الوضع كذا كذا كذا ، والآخر يقول له حسنًا ماذا ستفعل ؟ إلام سيوصلك هذا الكلام ؟ لا شيء ، عزيز لا يُغالب ، أتغالبه ؟ اعرف من أنت ومن هو ، العزيز الذي لا يعز عنده أحد ، عزيز لا يُغالب ، فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة ، {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً...} [فاطر / ١٠] فيعرف العبد أنه مدَّبَر مقهور ، ناصيته بيد غيره فحينئذ يفنى عن نفسه ، إذًا حظ النفس الذي تفرح به ولا تعرف الخلاص منه لن يفيدك بشيء لأنه عزيز ، يحول بينك وبين ما تشتهي ، لأن ما تشتهي هو حظ النفس ، {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ...} [سبأ / ٥٤] أتريد ذلك ؟؟ حسنًا ، أتعرفون قصة الرجل المشهورة الذي أراد أن يتزوج امرأة نصرانية وهو مؤذن .. القصة المشهورة التي يذكرها القرطبي في التذكرة ، شاهدها أنا أريد أن أتلذذ وقد فتنت بالمرأة الجميلة ولا يهم الدين {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ...} [سبأ / ٥٤] ، لا حصل دنيا ولا حصل آخرة ، أنت أيضاً كذلك، هي كذلك عندما آتي بالنقود سيترتب عليها كذا ، يبعث إليك بحادث يستغرق المال {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ...} [سبأ / ٥٤] ، كنت أدبر كل هذا المال كي أشتري السيارة الفلانية صرفتهم جميعاً على تصليحها ، {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ...} [سبأ / ٥٤] ، المسألة كيف ستحسبها ؟ لذا أنا مقهور فأفنى عن حظ النفس ، وماذا أيضاً ؟

قال وأن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة وكلما ازداد شهوده لذله ونقصانه وعيبه وفقره ازداد شهوده لعزة الله ، الله يريد أن يُعلمك عزته ، فيأتي بك من باب الذل ، فتذل له فتشهد أنه العزيز ،و منها أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هي معصية ، أليس صحيحًا ؟ فإذا شهد شريان الحكم وجعله فاعلًا لما هو غير مختار له .. أنا والله لم أكن أريد أن أفعل ذلك ما الذي جعلني أقع تلك الوقعة السوداء ؟ والله لم أكن أريد فعل ذلك ، ومن جعلك تفعل كذا ؟ إذًا الله أراد شيئًا ، لكن الله أراد بيَّ اليسر ويُريد بيَّ التخفيف والله يريد أن يتوب عليَّ ، نعم أنت وصلت ، هو يريد أن يتوب عليك ، يريد أن يعاملك بهذا لأن هذا سيأتي بك من مقام العبودية أعظم مما

تفهم أنت ، وأنت واقف ذليل ليس مثلما تقف في الصلاة وتقضي صلواتك وأورادك وتفعل كل شيء .. أتذكرون أول التوبة ؟ كل الناس بلا نقصان في هذا المعنى بإجماع كل من يلتزم يقول ليس هناك أفضل من الأيام الأولى ، تريد أن تقطع نفسك وتفعل وتسوى لماذا ؟ هو كذلك تشهد حينئذ أنك عبد مقهور مُدَبَّر ولن أفعل ذلك ولابد أن أفعل ويا رب تقبل توبتي ، فيُريك حينئذ عزته سبحانه وتعالى في قضائه

٢- يريك معنى اسمه البر الستِّير فيشهدك بره و في ستره . أين هو ؟ معنى لو كانت للذنوب رائحة لقذرنا الناس ، أأحد منكم بلا ذنب يخشى أن أطلع أنا عليه ؟ أو أنني بلا ذنب أخشى أن تطلعوا أنتم عليه ؟ من زعم غير هذا فهو كاذب ، كل واحد منا أكيد عنده ذنوبه التي لا يحب أن يطلع عليها أحد لأن هذا هو معنى الاثم والاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس ، فانظروا إلى بره في ستره ، يا أخي رقق قلبك ، يا أخي افهم عن ربك ، ويا أخي اشهد هذا المعنى وابكِ على نفسك ، والله نحتاج لها ، والله نحتاجها .. ابكِ على نفسك لا على خطيئتك ، في حديث عقبة بن عامر قال النبي ﷺ ما النجاة ؟ قال (وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك) إنما عندما النبي ﷺ قال (إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه) قال له ماذا ؟ قال (الزم بيتك وابكِ على نفسك) ابكِ على نفسك ، لا تبكى أنك فعلت ذنب بل ابكِ على حرمانك من جود ربك ، من قربك من ربك ، ليس لأني فعلت ذنب لا ، بل لأني حتى اليوم لا أعرف أن أتقدم يا من تقول منذ سنين وأتمنى أن أتعلم العلم الفلاني ولم انتهِ ، يا من تقول منذ سنين وأتمنى أن أختم القرآن ولم أختم ، يا من تقول أتمنى أن يكون لي دور ويكون لي رسالة أتمنى أن يكون لي قضية أعيش لأجلها ، أتمنى وأتمنى ... ولم تُحصِّل شيء .. ابكِ على نفسك ، فيشهدك بره في ستر ، فهو سبحانه وتعالى من أسمائه البر ومن أسمائه الستير ، فيشتغل العبد بمطالعة منة الستر ومنة البر فيذهل عن ذكر الخطيئة فيبقى مع الله ، يقول لك أنت فعلت ذنب فتقول يا رب استرني ..يا ربِ لا تفضحني .. يا رب أتم برك عليَّ ونعمتك عليَّ .. ويعمل حوّل هذا المعنى فوجد الله له ساترًا لعيبه وبرًا به فاشتغل بهذا المعنى فماذا حدث ؟ كان ذنبًا ثم ماذا حدث؟ أين أتى به؟ أصبح عابدًا بالأسماء و الصفات ، على أنه دخلها بماذا ؟ دخلها بذنب والمفترض أنه قاطع فإذا به واصل

المعنى الثالث ماذا قال ؟ : وحلمه في إمهال راكبه ، الحليم ، رقم ٣ يشهد اسم الله الحليم الذي هو قول الله تبارك وتعالى {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ...} [الكهف / ٥٨] فيشهد الحليم الذي لا يُعجِّل بالعقوبة فيُحدث له ذلك معرفةً بربه تستوجب الحياء وتستوجب الخجل وتستوجب الندم وتستوجب مقامات في التعبد ربما لا يحصِّلها بفعل كبير طاعات ، فيشهد حلمه أنه يفعل الذنب .. أتفهمون ماذا تعني ؟ أنا أعطيت ابني نقود كي يصرفها على كذا وكذا يعطيها للمدرس الذي يعطيه درس أنظر أمام عيني يخرج علبة السجائر ويضع السيجارة ويبدأ في شربها وأنا صامت ؟ كيف يحدث هذا ؟ ماذا ستفعل له ؟ اجتمعت كل الأشياء فكونه يشرب في حد ذاته بلوى وكونه متجرىء ولا يرى أباه الذي أعطاه هذا الخير ويفعل أمامه هذا متجرىء وقد أخذ من نقود أبيه بل أشد هو سارق أبيه ، ما هذا ؟ بالضبط هكذا ، أنت خائن وخائن بماذا ؟ لأنك تأخذ نعمه وتعصيه بها من غير أن يعطيك هذا لهذا الغرض فتأخذها وفي نفس الوقت تتجرأ وفي نفس الوقت يحلم عليك في ذلك كله ولا يُعجِّل لك بالعقوبة ، لو ابنك فعل ذلك ماذا ستفعل ؟ ستطرده وتضربه .. فانظر في نفسك .. وقل أنت {...كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً}

[الإسراء / ١٤] فيشهد حلمه في إمهال راكبه

رابعاً .. يشهد كرمه في قبول العذر منه ، أي أن العبد عندما يعتذر لا يعتذر بالقضاء والقدر وابن القيم يقول هذه مخاصمة ومحادة ، أي عندما يأتي للاعتذار يقول يا ربي ماذا أفعل ؟ أنت من جعلتني أفعلها ، إنما حين يعتذر يعتذر وهو يرى جنايته ، وهو مشتغل بهذا المعنى فيقبل ربه عذره بكرمه وجوده ، يقول يا رب أنا لا أستحق والله العظيم لا أستحق ، أعرف البلوى التي فعلتها فلا أستحق أن تعفو عني وتقبل عذري ، فعندما يقبل عذره وتجده يفرح ، والله يفرح بتوبة عبده ، فعندما تجده كذلك ما هذا الكرم ؟ بل يبدل السيئات حسنات ، غير ممكن ، فماذا تريد أكثر من ذلك كرم وجود ؟

٥- يشهد معاني أسمائه الغفور الغفار ، يقول ابن القيم : فيشهد فضله في مغفرته لأن المغفرة فضل وإلا فلو أخذ بمحض الحق كان العدل محمودا وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك الشكر والمحبة والإنابة والفرح والابتهاج وحينئذ يعرف من هو الغفار وحينئذ يفهم {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} [طه / ٨٢]

سادساً .. قال : يبلغ من خلال الذنب منازل الذل والخضوع والانكسار والافتقار فيكمُل للعبد – هناك منازل أنت هكذا ذللت لكن تلك المنزلة الأعلى أن تضع رأسك في الأرض في تعاملك مع ربك ، لا يأتيك هاجس أو وسواس يقول لك أنت أصبحت بخير الحمد لله فتقول له هسس أنا أدرى بحالي ربنا يتوب عليَّ ويغفر لي ويسترني ، فلا يتمكن الشيطان منك في لعبة العجب أو الرياء أو الكبر ولا تلك المعاني لأنه ذليل ، فيكمن له حينئذ منزلة الذل ومنزلة الخضوع ومنزلة الانكسار والافتقار

اسمعوا ماذا يقول ابن القيم : فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، النفس بها ذلك لذا ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه الحديث لأبي سعيد الخدري ولأبي هريرة رضيَّ الله عنهما أن النبي ﷺ قال (قال الله عز وجل العز إزاري .. العز إزاره والكبرياء ردائه فمن ينازعني عذبته) ورواه البُرقاني في مستخرجه من الطريق الذي اخرجه مسلم لكن بلفظ يقول الله عز وجل (العز إزاري والكبرياء رداءي فمن نازعني شيئًا منهما عذبته) وماذا يقول ابن ا لقيم ؟ ولو قدرت – النفس – لقالت كقول فرعون ولكنه قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر ، انظر للنفس كيف تكون؟ بها هذا المعنى وهذا العتو والعلو ، هذه النفس ..هذا أنت .. لاتدَّعي خلافه هذا فيك لكن الفكرة كيف تُروَّض على معاني العبودية قال فيخلصها الله من هذا بذل العبودية بأربع مراتب:

أولها .. ذل الحاجة .. فأنت تمرض وتذهب للأطباء فيقولون لك لا علاج لك ، فلا يوجد سواك يشفيني من هذا ، أنت تحتاج مال وتُغلَّق أمامك الأبواب وليس هناك سواه الرزاق وهكذا

الثانية .. ذل الطاعة والعبودية ، وهذا ذل الاختيار وهذا ذل أهل الطاعة وهو سر العبودية

الثالث .. ذل المحبة .. فإن المحب ذليل ، من يحب يحدث له ذلك ، وكل الناس تعرف ذلك في محاب البشر ، عندما تحب شخص ما جداً تجد نفسك خاضع له ، ذليل له دون أن تدري ، لم يُصنع بك ذلك ؟ فإذا أحببته حق الحب ذللت له

الرابعة .. ذل المعصية والجناية ، فإذا اجتمعت الأربعة – ذل الحاجة وذل الطاعة وذل المحبة وذل المعصية – كان الذل لله والخضوع له أكمل و أتم ، حينئذ يورثك ذلك المعنى الحقيقي للفقر ، فانظروا ما مراده ؟؟ ماذا فعل بك الذنب ؟ كل تلك المعاني ،

ابن القيم زاد فالهروّي قال عزته في قضائه وبره في ستره وحلمه في إمهال راكبه .. كرمه في قبول العذر منه .. وفضله في مغفرته ، ابن القيم زاد عليها ثلاث .. الأول شهود معاني الذل التي ذكرها ، والمعنى الثاني قال لتُعمل آثار أسمائه وصفاته أي تلك السلسلة التي نتكلم فيها وهي معنى تعرف .. كي تتعرف ، تتعرف لو لم تذنبوا لجاء الله بقومٍ يذنبون ليغفر لهم ، يقول : فإذا فرضت الحيوان بجملته معدومًا فمن يرزق الرزاق ؟ إذا كان كل واحد عنده رزقه لماذا سيرزق الرزاق ؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم فلمن يغفر ولمن يعفو وعلى من يتوب وعلى من يحلُم ؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سُدت والعبيد أغنياء معافون فأين الذي سيسأله ويتضرع له ويبتهل بين يديه وهكذا ؟ قال فسبحان من تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ودلَّهم عليه بأنواع الدلالات ، وفتح لهم إليه جميع الطرق ثم نصب إليه الصراط المستقيم

المعنى الثامن .. قال .. وهنا وقفة المعاني الرقراقة العالية جدًا ، فابن القيم قبل أن يُصدِّر هذا المعنى ترك مسافة وكتب فصل لأنها وحدها تريد وقفة

فقال : ومنها السر الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة ولا تجسر عليه الإشارة ولا ينادى عليه منادِ الإيمان على رؤوس الأشهاد بل شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبة له وطمأنينة به وشوقًا إليه ولهجًا بذكره وشهودًا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه .. ما سر العبودية ؟ قال : وهو المضمن فيما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لالله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان عليه راحلة بأرض فلا فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح) فالحديث مشهور لكن ابن القيم سيذكر فيه كلاماً يقطع قلوب المحبين ، قال : وهذا الفرح له شأن ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه .. لماذا ؟ ولا يطّلع عليه إلا ..انتبه لو ليس لك في هذا الجزء لا تدخله .. من الأول .. إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته وقال : وقد كان الأوّلى بنا طيّ الكلام فيه – كان الأفضل ألا أتحدث ولا أقول ما سأقوله الآن – إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم ونهاية أقدامهم من المعرفة وضعف عقولهم عن احتماله غير أنَّا نعلم – يا رب نكون منهم – أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تُجَّارها ومن هو عارف بقدرها وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفًا بها فرُب حامل فقه ليس بفقيه ورُب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .. يقول انتبهوا الكلام الذي سأقوله كلام خطر لأن هناك ناس ستغتر به وتأخذه على غير مقامه وهناك من ستُنزله منزلته .. ما هذا المعنى الرائق العالي ؟

أول شيء بدأ بها ابن القيم ببيان كرم الإنسان عند الرحمن {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...} [الإسراء / ٧٠] ماذا قال ؟ : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه أن كرمه – انظروا من سيقرأ هذا الكلام كيف سيفهمه : هو حب الله للعبد لأن ناس كثيرة تحدثوا في هذا المعنى وأحيانًا كثيرة يؤخذ على غير محمله فحب الله للعبد انظروا كيف يحبنا الله .. فالناس تغتر بذلك بدل أن تنزل هذا الكلام مقامه العالي ،

يا أخي كرمك وفضلك وشرفك وخلقك لنفسه وخلق كل شيء لك وخصك من معرفته ومحبته وقربه وأكرمك بما لم يعطه غيرك وسخر لك ما في السماوات والأرض وما بينهما حتى الملائكة الذين هم أهل القرب منه استخدمهم لك وجعلهم حفظة لك في منامك ويقظتك وظعنك وإقامتك وأنزل إليك وعليك كتبه وأرسل لك وخاطبك وكلمك واتخذ من الناس الخليل والكليم والأولياء والخواص والأحبار .. فلأنت عنده بالمنزلة ،لك شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباك بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلَّمه أسماء كل شيء وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين واتخذه عدوًا له .. فلأنت بتلك المزية مستحي إذا كنت لله على فهمٍ ومعرفة .. ثم يقول : وللمحبوب – هو أنت – يا محبوب وللمحبوب عدوه هو أبغض خلقه إليه قد جاهره بالعداوة وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعاتهم وعبادتهم له دون وليهم معبودهم الحق وقال لك هذا الشيطان {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا...} [فاطر / ٦] ثم أنت بعد ذلك بهذا الجود وبهذا الكرم مغتر ،

يخبرك أنه أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين سبقت رحمته غضبه وحلمه عقوبته وعفوه مؤاخذته وأفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة يحب الإحسان والجود ويحب أن يُحسن لك ويجود عليك ويعطيك من فضله ومن بره فهو ذو الفضل كله والفضل كله بيده والخير كله منه إليك والجود كله منه لك ، ثم أنت بعد ذلك تركن وتتعرض لسخطه .. انظروا ماذا يقول .. فإذا تعرض عبده ومحبوبه – كلمة محبوبه تقطع قلبك يا حبيب الرحمن كيف تتعرض لسخط المنان !! فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه وأعد لك تلك الأنواع من الكرامة والفضل إذا تعرض لغضبه وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه وشردت عنه ووليت ظهرك ربك وواليت عدوه وتحيزت لعدوه وتركته هو

قال : فهذا يستدعي من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر بأن تتعرض لغضبه وإلى سخطه وانتقامه ويصير غضبه وسخطه حال بك بسبب معصيتك قال : فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته ناسيًا لسيده – نسيت ربنا {...نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ

أَنفُسَهُمْ...} [الحشر / ١٩] – ناسيًا لسيده منهمكًا في موافقة – ها هو حظ النفس هذا مرادك – موافقة عدوه قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله إذ عرضت بهذا الحبيب فكرة – وأنت سائر تذكرت – فتذكرت بر سيدك وتذكرت عطفه وتذكرت جوده وتذكرت كرمه وعلمت أنه لابد أن تصير إليه وأنك معروض عليه وأنه إن لم يقدم العبد عليه بنفسه قُدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال ففررت إلى سيدك من بلد عدوك وجد العبد في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه فوضع خده على عتبة بابه وتوسد ثرى أعتابه متذللًا متضرعًا خاشعًا باكيًا آسفًا يتملق سيده ويسترحمه ويستعطفه ويعتذر إليه قد ألقى بيديه إليه واستسلم له وأعطاه قياده وألقى إليه زمامه فعلم سيده ما في قلبه فعاد ما كان الغضب عليه رضا ومكان الشدة عليه رحمة وأبدله بالعقوبة عفوا وبالمنع عطاءا وبالمؤاخذة حلما فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله وما هو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكيف يكون فرح سيده به وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعا واختيارا وراجع ما يحبه سيده منه برضاه وفتح طريق البر والإحسان والجود التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة

وهذا موضع الحكاية المشهورة حين حصل له شرود وإباق من سيده فرأى في بعض السكك بابًا قد فُتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكرًا فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أَخرج منه ولا من يئويه غير والدته فرجع مكسور القلب حزيناً فوجد الباب مرتجًا فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه والتزمته تقبله وتبكي وتقول يا ولدي أين تذهب عني ومن يؤيك سواي ؟ ألم أقل لك لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادة الخير لك ثم أخذته ودخلت فكأن القول الأم لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة والشفقة وتأمل قوله (لا الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها) وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء

فإذا نظرت إلى هذا فهمت سر فرح الله بتوبة عبده ، وإذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود يقول ابن القيم أنكم تظنون أن الرجل الجواد الكريم عندما يخرج المال تظنون أن الفرحة للمُعطى أشد من فرحة المعطِي والله أبدا ، من يجرب الجود والكرم يجد فيهما لذة أعظم من اللذة التي يأخذها الآخر المُعطى له فلذلك الله سبحانه وتعالى يفرح بعبده ويفرح بتوبة عبده لأنه سمى نفسه المحسن الجواد المعطِي سبحانه وتعالى ،

ثم يقول : فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًا شديدًا أسره عدوك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك ، ثم إنه إن فلت من عدوك ووافاك على غير ميعاد فلم يفاجئك إلا وهو على الباب يتملقك ويترضاك ويستعينك ويمرغ خديه على تراب بابك وأعتابك فكيف يكون فرحك به ؟ وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على سواه هذا ولست الذي أوجدته وخلقته وأسبغت عليه نعمك والله عز وجل هو الذي أوجد عبده .. لست أنت من أوجدت أو خلقت ولا فعلت كل ذلك فما بالك بالله الذى أوجدك وخلقك {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [الأعلى / ٢] {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى / ٣]

يقول : ومن هذا – من فرحه – ضحكه سبحانه حين يأتي من عبوديته – هذا العبد – بأعظم ما يحبه فيضحك سبحانه فرحًا ورضا كما يضحك من عبده إذا سار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته يتلو آياته ويتملقه ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو فاقبل إليه وباع نفسه لله ولقاه النحره حتى قتل في محبته ورضاه ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرًا حيث لا يراه إلا الله ، الحديث المشهور الذي عند ابن حبان لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ثلاثة يحبهم الله ويستبشر بهم ويضحك لهم ..) وفي حديث آخر قال (ومن ضحك الله له في موطن فلا حساب عليه) الثلاثة كل واحد من هؤلاء الأول آثر الله سبحانه وتعالى على شهوته ، نائم مع زوجته في فراش الزوجية فيثور ويترك شهوته لإرضاء ربه ، والثاني يقف الجيش كله هرب وبقيَّ هو ، فحام بصدره عن الناس كلهم إما أن يموت شهادة وإما أن يدفعهم

، والثالث أتى للناس رجل فقير يطلب منهم الحاجة فكلهم منعوه إلا هو فركض خلفه وانتظر لحظة السر حيث لا يراه أحد فأعطاه دونهم .. هو ذلك المميز .. هو ذاك الذي له حظ من اسم الله الوتر ،

فلو كل تلك المعاني تأملناها في مراد الله أن تقع في الذنب وأنا أردت أن أشبه بذلك ولم أقل مراد الله في خلقك أو مراد الله في تكليفك أو مراد الله في النعم التي ينعم بها عليك ولكن أخذتها بما يستوجب فهمُك ، لماذا تفعل الذنب ؟ .. ترى كل تلك المعاني والمقامات فإذا قارنت بعد ذلك بين مراد الله ما هو له وبين مرادك أنت عرفت من أنت وعرفت من هو فآثرته على نفسك..

لذا يا جماعة واجبنا العملي لدرسنا اليوم مقامان لطالما تحدثنا عنهما

المقام الأول :حين تقارن بين ما له وبين مالك يستوجب ذلك الذل والانكسار قالوا : من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار فليدخل من باب الذل والانكسار فما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ماذا تعني ؟يحبك وأنت مضطر وأنت تقول له أمن يجيب المضطر وأنا مضطر فأجبني ، فما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار ، أتريد أن يفيض جوده وتنزل هباته ؟ ليس ثمة شيء أسرع بذلك سبباً من ذُلِّك وافتقارك ، قال : فإذا قرعت الباب ورمت الدخول مع الأحباب فقل بلسان التضرع والانكسار يا أيها العزيز الغفار مسنا الضر وهو البعد والغفلة وجئنا ببضاعة مزجاة – وهي أعمالنا المتعبة المدخولة المليئة بحظوظ النفس – وقلب معلول فأوف لنا ما أملناه من الجزاء المأمول وتفضل علينا بالقبول والوصول وقل اليوم نغفر لكم ونُغطي مساوئكم ونوصلكم بما مني إليكم من الإحسان لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان ، ليس بسبب أعمالك لكن لأنه كريم ، هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم واستقلوا بضاعته وأحضروا شكايتهم سمح لهم وقربهم وكشف لهم عن وجهه الجميل ومنحهم العطاء الجزيل فما ظنك بالرب العظيم الجليل الذي هو أرحم الراحمين ومحل أمل القاصدين ، بالذل والانكسار وشهود تلك المعاني الكبار تُبلَّغ الخلوص من حظ النفس ومراعاة مراد الرب لا مرادك أنت منها

المعنى الثاني وقد تذاكرناه عما قريب وينبغي الوقوف عنده مليا المعنى الثاني : الحياء ،

وأنا هنا آتيكم بآية لم نتوقف عندها في آيات الحياء ، وهي قول الرحمن {...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} [الشعراء / ٢٢٧] قال بعضهم سيعلم المُعرض عنا ما فاته منا ، فماذا فقد من وجدك وما الذي وجد من فقدك ؟ لقد خاب من رضيَّ دونك بدلًا ولقد خسر من بغيَّ عنك متحولًا كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان!!

إنها وقفتا تحتاجان إلى كثير تأمل وكثير تدبر ودرسنا اليوم قاعدة ربانية من استلهمها وأخذ بها ليفهم عن ربه هذا الذي تعرف وهذا الذي بلِّغ

نسأل الله عز وجل أن نكون منهم

سبحانك اللهم ربنا و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فضيلة الشيخ / هاني حلمي